أ. الشيخ محمد علي التسخيري
الامين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية

الملف

وجدانية الحقوق ترفض الاعتداء على المقدسات

من نافلة القول: التأكيد على قضية الحوار بين الاديان (وهو جوهر الحوار بين الحضارات) انطلاقا من تعاليم الاسلام الاصيلة القائمة على الواقعية التي يتحلى بها.

وقد انطلقت دعوة الحوار بين الأديان على أسس منطقية سليمة، وراحت تترك أثرها الجيد في مجال تحقيق التفهّم والتفاهم المنشود وتقليل مناطق الصدام، وتوفير مجالات التعاون المستمر على صعيد خدمة القضية الإنسانية والقضية الدينية، والقيم المعنوية.. ونحن نرجو لها التوسع من مرحلة التفاهم بين المتخصصين إلى مرحلة صيرورتها ثقافة عامة تعشقها الشعوب وتتعامل على أساس منها في مختلف قضايا التماس الحضاري بعيداً عن محاولات الاستغلال والتشكيك، والموانع التي تقف عقبات كأداء في طريقها.

ومن اوليات قضية الحوار - اي حوار كان - ضرورة الانطلاق من قناعات متفق عليها مسبقاً.. لتكون هذه القناعات هي الاضوية الكاشفة التي تحل العقد وتفتح السبل المسدودة لعملية الحوار، وتقضي في موارد الخلاف.

وما نتصوره ان الايمان بالفطرة والوجدان الاخلاقي هو من القناعات المشتركة بين جميع الأديان السماوية:

والمقصود بالفطرة هو ان الإنسان مخلوق الهي اودعت الحكمة الإلهية في وجوده وطينته الاصلية مجموعة من القضايا البديهية والقدرات العقلية والميول والغرائز والوجدان اللوام التي تضمن له سيراً طبيعياً نحو تكامله المرسوم له.

وإنّ الأديان إنّما جاءت لتثير له دفائن العقول - كما يعبر الإمام علي(عليه السلام) - وتهيئ الجو المناسب لبروز هذه الطاقات كامنة على سطح حياته فتهديه سبيلاً إنسانياً يختلف كل الاختلاف عن السلوك الذي تسلكه الحيوانات العجماء التي لا تتمتع بما يتمتع به من طاقات.

اما القضايا البديهية فهي التي تمنحه القدرة على المعرفة معرفة نفسه ومعرفة الكون والواقع، وفلسفة الوجود والعلاقات القائمة بين الاشياء وتلك من قبيل: الايمان بمبدأ العلية، والايمان بمبدأ استحالة التناقض (الجمع بين النقيضين، وارتفاع النقيضين) و(بعض القضايا الأخرى) فهذه قضايا مغروزة في القناعة والوجدان الإنساني لا يحتاج للاستدلال عليها والا دخل في طريق مسدود لأنّ الاستدلال نفسه يتوقف عليها كما هو واضح.

أما القدرات العقلية فهي نفس قدرة النفس الإنسانية على التأمل والتفكير وتجريد القضايا من ملابساتها والصعود من مرحلة الجزئيات إلى مرحلة الكليات، والقيام بقياس الاشياء للوصول إلى تصورات جديدة والتخطيط الذهني

لمراحل غير موجودة على صعيد الواقع القائم.. ان هذه القدرة الذهنية هي من مختصات الإنسان وهي سرّ مسيرته التكاملية وابداعه ونموّه.

واما الميول الغريزية فهي التي تقوده نحو كماله وتدفعه للاستفادة من طاقاته في هذا المجال:

ومن هذه الميول: ميله نحو الكمال، والسير نحو الكمال المطلق، ومحاولة سد جوانب العجز في وجوده، والركون إلى هذا المطلق القادر واداء حقه وشكر نعمه والقيام بحق طاعته. فهذه امور يجدها الإنسان مغروزة في الطينة الإنسانية وان اختلفت تجلياتها وتعددت أساليبها وربما غطت الشبهات على هذه الميول وكبتتها.

ومنها أيضاً غريزة حب الذات والعمل على تحقيق طموحاتها فهي من الغرائز الاصلية في الإنسان والتي لا يمكن تجاوزها والقضاء عليها، كما تصورت الماركسية يوماً ما أنها ظاهرة فوقية يمكن حذفها من الوجود الإنساني من خلال تحريم الملكية.

ومنها التذوق الفني: والابتهاج لعناصر الجمال التي يزخر بها هذا الكون.

ومنها هذه النفس اللوامة والوجدان الاخلاقي الذي يشخص اجمالاً نوعية الحقوق ويحدد حدودها ويتابع الانسان – أيا كان – اذا تخطاها.

ولسنا نريد استعراض كل العناصر الفطرية وانما نريد ان ننطلق إلى هذه الحقيقة وهي: ان الاقتناع بان (العدالة شيء حسن دائماً) و(ان الشيء الحسن ينبغي فعله) هي من القناعات الفطرية التي لا تحتاج إلى دليل... فإذا اقتنع الإنسان بان الموضوع المعين حسن اقتنع بانه مما ينبغي فعله دونما تشكيك فهو موضوع مطلق كما ان من المواضيع المطلقة حكم الوجدان الإنساني بان قضية (اطاعة المنعم الحقيقي، والمالك الحقيقي للكون والإنسان) هي قضية مطلقة لا تتخلف أيضاً وهناك من القضايا التي زرعت في الوجود الإنساني

كمصاديق لمسألة العدالة (أصلاً) كالصدق، والأمانة، والرحمة، والإيثار، والسلام.

فهذه الأمور حسنة في أصلها، ونقصد من عبارة (في اصلها) أنها قد تطرأ عليها بعض الحالات التي تفقد معها حسنها الطبيعي الفطري وتخرج من كونها تجليات للعدالة ومصاديق واقعية لها لتعود من تجليات الظلم والتعدّي.

ونستنتج من هذا ان الفطرة الإنسانية تحكم بنوعين من الحكم:

أحدهما مطلق من قبيل: العدالة نفسها وطاعة الخالق الحكيم.

والثاني مقيد ونسبي من قبيل: الصدق والسلام.

فقد يكون الصدق في بعض الاماكن نتيجة ما يؤول إليه من تبعات ظلماً لا عدالةً وكذلك السلام احياناً بما يؤدي إليه من جرأة على حرمات الإنسانية فإذا كانت العدالة قيمة مطلقة فان السلام قيمة نسبية نعمل على تحقيقها إذا عادت وجهاً من وجوه العدالة، ونرفضها ان كانت ظلماً ولكن التساؤل الاساس هو: ما هي معايير العدالة؟ وكيف نتأكد من تحققها.

ان الأديان السماوية كلها تؤكد على معيارين:

الأوّل: معيار تعبدي نستفيد فيه من علم العالم المطلق وهو الله تعالى وهو تعليمات الدين الثابتة، والتي نتأكد من كونها صادرة من الله سبحانه ذلك اننا نتأكد قبل ذلك من علم الله الشامل، ومن لطفه ورحمته بالإنسان المخلوق ومن عدالته وتمتعه بكل صفات الكمال، فهو لا يريد بالإنسان الا الخير ولا يخدع الإنسان وانما يكشف له كل الواقع ويريد له كل الخير.

الثاني: معيار وجداني يكفي فيه التأمل في الاعماق وقناعاتها أو فلنعبّر يكفي فيه الرجوع إلى الفطرة نفسها.

وما يساعدنا في اكتشاف العمق الفطري هو كون هذه القناعة ـ أيّة قناعة كانت ـ من ملازمات الطبيعة الإنسانية ولذلك نجدها متوفرةً لدى كل ابناء

الإنسان في مختلف ظروفهم وحالاتهم الفردية والاجتماعية وازمنتهم وامكنتهم.

ومن هنا كان الوجدان المعيار الوحيد الذي يفصل في الأمر حتى بين من لايؤمنون بالاديان.

ولكي نتأكد من هذا المعنى نستطيع ان نطرح هذا السؤال على اي إنسان (هل تعتبر السلوك الفلاني سلوكاً انسانياً ام سلوكاً حيوانياً؟) مثلاً (قتل اليتامى والعجزة والمستضعفين للتلهي والتشهي) مثل هذا السلوك يعد سلوكاً وحشياً من قبل اي إنسان بلا ريب. والقرآن الكريم احياناً يعيد الإنسان إلى تأمله الوجداني وقناعته الفطرية (**أحلّ لكم الطيبات**)(١) ويترك امر تعيين الطيبات للإنسان (**إنّما حرّم ربّي الفواحش**)(٢) ويترك امر تعيين الفواحش أيضاً ويعتبر الخروج عن الحالة الإنسانية (فسقاً) وانحرافاً عن الطبيعة (**نسوا الله فانساهم انفسهم اولئك هم الفاسقون**)(٣).

وهكذا ننتهي إلى هاتين الحقيقتين وهما:

الاولى: ان الأديان تؤمن بالفطرة الإنسانية، وان الفطرة تقرر كون العدالة مطلوباً مطلقاً وكون السلام مطلوباً اذا شكل مصداقاً من مصاديق العدالة وتجلياً لها ومن هنا كان التأكيد الدائم على (السلام العادل) تأكيداً انسانياً صحيحاً.

الثانية: ان الوجدان هو الحكم الفصل في مجال تقرير الحق الانساني كما انه هو الحكم ايضاً في مجال تحديد هذا الحق بحدود تضمن له انسانيته وتبقيه في حدود (العدالة) فاذا تجاوزها عاد ظلماً وفقد (حقيته) ومن هنا ننطلق الى القول بان (الحرية) وان كانت تمتلك جذوراً وجدانية الا أنها تبقى محدودة بحدود قد يدركها الوجدان كما في تحديدها بعدم الاعتداء على الآخرين وكراماتهم. وقد يوحي بها الله العالم بما يصلح الانسان، والمانح للانسان كل

حقوقه. ومن الطبيعي فان الله تعالى منع الانسان من الاعتداء على كرامة الآخرين وهذا أمر واضح مقرر في الشريعة الاسلامية وهو يمتد مع الانسان في حياته وبعد مماته وبذلك اعتبرت حرمة الجنازة من الحقوق الانسانية في الاعلان الاسلامي. وهذا ما نجده بشكل اقل وضوحا في الاعلان الدولي حيث تقرر المادة التاسعة والعشرون البند (ب) ان الحريات المذكورة فيه مقيدة بالاعتراف بحريات الآخرين ورعاية المقتضيات الاخلاقية الصحيحة، ولاريب ان من اهم المقتضيات الاخلاقية كرامة الانسان الفرد وبالاحرى المجتمع. وقد قلنا ان الوجدان هو معيار الحق وحدوده (في المنطق الانساني العام) ويأتي الدين ليعطي الانسان معياراً اوسع وادق ويتم تطبيقه طبعاً في الوسط المؤمن به.

ومن اهم مايقوم كرامة الإنسان المقدسات والمطلقات التي يؤمن بها ونحن نجد القرآن الكريم يصف الله تعالى بالملك القدوس، ويسمي الوادي الذي كلف به موسى بحمل الرسالة الكبرى بـ(الوادي المقدس) والملك الذي يحمل الوحي بـ(روح القدس) وارض فلسطين بـ(الارض المقدسة) لأنها ارض انبياء الله. فأية اهانة لها تعنى تعدياً على الكرامة الإنسانية ويزداد الأمر وضوحاً عند ما ندرك أن عنصر الايمان في الأديان السماوية وخصوصاً في الاسلام يشكل احد مقومات الشخصية بل تؤكد الآية القرآنية الشريفة (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم) ان الايمان يبقى ناقصاً مالم يصبغ العواطف والمشاعر ويترك القلوب مطمئنة خاشعة، وان بعض الامم عندما تبتعد عن منبع ايمانها تصاب بقسوة القلوب.

وخصوصاً اذا كان الأمر يرتبط بشخص الرسول الكريم الذي يعشقه المؤمنون.

وتلك حقيقة قد لا يدرك ابعادها الملحدون.

ان حب الله ورسوله مقدم لدى المسلمين على كل حب يقول تعالى (قل ان كان اباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) (التوبة : ٢٤)

ويقول (ص): لايؤمن عبد حتى اكون احب اليه من نفسه واهلي احب اليه من أهله وعترتي احب اليه من عترتي وذاتي أحب اليه من ذاته) (رواه ابو داوود).

وهذا الكلام بعينه يأتي في المجتمع المسلم، فان المقدسات توجه عواطفه ومشاعره وكل حبه وكرامته وعليها يبني شعاراته ووحدته فهي توجه سلوكه وحركته الحضارية وخصوصا اذا كانت محورية كقدسية القرآن والرسول(ص) واهل بيته وصحابته.

وفي الختام فاني ادعو المسلمين جميعاً لنصرة رسولهم الكريم واصحابه الكرام واهل بيته الطاهرين والدفاع عن مقدساتهم وبذل الغالي والرخيص في سبيل ذلك اما الاعداء والحاقدون من الصليبيين والصهاينة فلن ينالهم الا الخزي والعار والدمار، ولن يجدوا منا الا صلابة في الحق ووحدة وتماسكاً واعتصاماً بحبل الله المتين. (وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون والعاقبة للمتقين).

كما اؤكد على نقطتين مهمتين:

اولاهما: ان الرد يجب ان يكون انسانياً اسلاميا بعيدا عن الافراط والتطرف والعنف الاعمى الاهوج كما حدث من بعض الاعمال الغريبة على الروح الاسلامية سواء بعد الاهانة لشخص الرسول الاكرم(ص) او بعد تفجير المرقدين الطاهرين للامام الهادي(ع) والامام العسكري(ع) من احراق وتدمير للمساجد والاماكن العامة وقتل وتهجير للآمنين، فهو امر وحشي لايقبله عقل

او دين ونحن ندينه بشدة ولايقوم به الا السخفاء أو العملاء.

وثانيتهما: ان خير نصرة للرسول العظيم تكمن بالعمل الجاد المنظم على تطبيق شرع الله في الارض، وتحقيق الخصائص القرآنية لهذه الامة ومنها الوحدة والترابط والتوازن والوسطية والتعاون والتكافل ونشر الدعوة ومحو المفاسد الخلقية والاعداد العلمي والاقتصادي والمساهمة الحضارية الرائدة في المسيرة الانسانية الصاعدة.

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون).

الهوامش:

١) المائدة، ٥.

٢) الأعراف، ٣٣.

٣) الحشر، ١٩.